**مجلة الدراسات الفلسطينية**، المجلد 16، العدد 62 (ربيع 2005)، ص 153

# رسالة من نابلس

**بشارة دوماني***

## نابلس تحت الاحتلال:

## مشاهد من الحياة اليومية**

**لقد** استُهدفت مدينة نابلس بوحشية خاصة من جانب الحكومة الإسرائيلية منذ بداية الانتفاضة الثانية في أيلول/سبتمبر 2000. فالهجمات العسكرية المدرعة المدمرة على المدينة في نيسان/أبريل 2002 روعت السكان، وأسفرت عن استشهاد 119 شخصاً، ودمرت مباني تاريخية لا تعوض،(1) وأفضت إلى حصار طويل عزل نابلس عن ريفها وبقية الأراضي الفلسطينية المحتلة. وقد أدى الحصار العسكري المستمر منذ عامين إلى تقويض البنية التحتية الاقتصادية، والنسيج الاجتماعي، والحياة الثقافية للمدينة وضواحيها. كما أن التوغلات العسكرية الليلية شبه اليومية رفعت عدد الضحايا في هذه المنطقة إلى ما يقارب 600 شهيد بين المدنيين.

يهدد الوضع الراهن في نابلس بالانفجار في أية لحظة، وذلك نتيجة عدة عوامل داخلية، منها: الصراع الاجتماعي والجيلي؛ الخلاف بشأن دور المجموعات المسلحة؛ عدم وضع دور للمؤسسات العامة؛ العلاقة بين مخيمات اللاجئين والمدينة. وفي الوقت نفسه تتغير نابلس بسرعة، ديموغرافياً ومادياً، جرّاء ثلاث سياسات إسرائيلية: الاستيلاء على الأراضي لبناء جدار الفصل وتوسيع المستعمرات الإسرائيلية غير الشرعية؛ فصل مختلف المناطق الفلسطينية الآهلة بعضها عن بعض من خلال القيود القاسية على الحركة فيما بينها؛ الوضع المتفاوت للمدن الفلسطينية، إذ تقع نابلس من هذه الزاوية على الطرف الأقصى للطيف، وتقع رام الله على الطرف الآخر. وهذا واضح تماماً لأهالي نابلس، إن لم نقل للعالم الخارجي.

ولعل الأصعب تفسيره هو قدرة المدينة وأهلها على الحفاظ على تماسكها حتى الآن، وسرّ هذا التماسك. التفسير المختصر هو أن الأشكال التاريخية للتضامن والشبكات العائلية، ولا سيما على مستويي العائلة والحي، تضافرت مع اللجان الشعبية الحسنة التنظيم على المستوى المحلي لتوفير الحد الأدنى من التماسك الاجتماعي. وثمة عاملان آخران: أولهما استمرار توفر الأموال للرواتب، وإعادة البناء، والتعويضات، ومساعدات الطوارئ، التي تقي عشرات الألوف من الناس من السقوط في ظروف الفقر المدقع. وثانيهما الضغط الإسرائيلي العسكري الذي نجح في توحيد السكان. ولا تزال منطقة نابلس عند كتابة هذه السطور في خضم النضال ضد الاحتلال؛(2) وهذا الاستمرار أساسي في قدرة السكان على النضال والبقاء.

### المدينة كسجن

نابلس، كبرى المدن الفلسطينية في الضفة الغربية المحتلة بعد القدس العربية، أصبحت سجناً عملاقاً لسكانها. فقد أغلق الجيش الإسرائيلي نقاط الدخول إلى المناطق المبنية داخل الحدود البلدية: قصبة المدينة، ومخيمات بلاطة وعسكر وعين بيت الماء، وأجزاء من عدة قرى محيطة – أغلقها الجيش كلها: بعضها بصورة دائمة بواسطة خنادق عميقة، وتلال ترابية، وسواها من العقبات كالصخور الضخمة، وبعضها الآخر بنقاط تفتيش عسكرية. هناك استثناءان: نقطة تفتيش حوارة عند المدخل الشرقي إلى الوادي الضيق الذي يحيط بنابلس، والتي تستعمل بوابة عبور إلى رام الله والقدس وسواهما من المناطق إلى الجنوب والشرق؛ نقطة تفتيش بيت إيبا في الطرف الآخر من المدينة، والتي تقود إلى جنين وطولكرم وقلقيلية والقرى إلى الشمال والغرب.

والواقع أن عبارة "نقطة تفتيش" مضللة؛ فالنقطتان العسكريتان في حوارة وبيت إيبا أشبه بمعبرين حدوديين

دائمين منهما بحاجزين موقتين على الطريق. ففي نقطتي العبور هاتين مُهّدت مساحات واسعة وسُوّيت لتتسع لإجراءات عسكرية معقدة تتحكم في سيل المرور: ممرات للمشاة والسيارات؛ عنابر حصينة؛ أبراج حراسة مدججة بالرشاشات الثقيلة ومغلفة بشبكات التمويه؛ سياجات وحواجز؛ مقار قيادة ومنشآت تتصل بها.

تفتح المعابر عند الثامنة صباحاً وتغلق عند السادسة مساء، ولا يسمح للفلسطينيين أبداً بأية حركة خارج هذه النافذة الزمنية. لا يسمح لأية مركبات فلسطينية بيض اللوحات بأن تدخل نابلس إلاّ سيارات الإسعاف والحاصلين على أذونات خاصة. وتفتش كلتا الفئتين تفتيشاً دقيقاً، وتوقف لمدة ساعات أحياناً، ولا يسمح لها دائماً بالدخول. لذلك يتوجب فعلياً على كل الفلسطينيين الذاهبين إلى نابلس أن يستخدموا وسائل النقل العامة – سيارات مرسيدس عامة تتسع لسبعة ركاب، أو باصات صغيرة من طراز فورد أقدم عهداً كالتي كانت الشرطة الإسرائيلية تستخدمها، والباص أحياناً – وهي كلها تنزل الركاب في مكان محدد على مسافة مئة متر من مجمع العبور. (البديل الوحيد الآخر لدخول نابلس هو الذهاب مشياً على الأقدام، أو ركوب الحمير على دروب تمر عبر التلال، لكن الناس والحيوانات تعرضوا مراراً لإطلاق النار بحيث لم يبق إلاّ بضعة حمير وعدد أقل من الركاب المستعدين لركوب هذه المخاطر).

فور الترجل من السيارات يطوق الركاب حمالون فلسطينيون، عشرة أو أكثر، استحصلوا على تراخيص من الجيش الإسرائيلي لنقل الحوائج والحقائب عبر المعبر. وبعد المساومة في أجرة هذه الخدمة يقوم الحمالون بتحميل الحقائب على عربات يدفعونها بعيداً عن الركاب في اتجاه جندي يقف داخل عنبر أسمنتي حصين. ويقف كل حمال على بعد أمتار من الجندي وقد صوبت إلى رأسه بندقية إم 16، فيرمي المحتويات على بساط بلاستيكي لونه كلون التراب الذي يغطيه. ثم يرفع الحمال بحركات مبالغ فيها كل قطعة من الثياب وسواها من الحوائج، ويلوح بها أمام الجندي ثم يحشرها ثانية داخل الحقيبة التي كانت فيها. وفي وقت لاحق من الصيف أُدخلت آلات التصوير الشعاعي، الأمر الذي يضفي أجواء رقابية إضافية على المعبر الحدودي، لكن الانتظار بات أطول. بعد التفتيش، تنقل الحقائب إلى عربة دفع أُخرى وتدفع نحو معبر المتجهين إلى المدينة. ويبلغ طول هاتين الرحلتين طول ملعبي كرة قدم تقريباً، لكنهما تكلفان أكثر من أجرة تاكسي من رام الله على بعد ثلاثين كيلومتراً إلى الجنوب.

في هذه الأثناء، يدخل المسافرون المشاة مكاناً مسيجاً يفضي إلى ثلاثة ممرات ضيقة تفصل بينها حيطان أسمنتية يصل علوها إلى مستوى خصر الإنسان. أحد هذه الممرات مخصص للنساء والأطفال، وآخر للرجال فوق سن الخامسة والأربعين، والثالث لأولئك الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والخامسة والأربعين. ويساق هؤلاء الأواخر بانتظام إلى "الجورة"؛ وهي حفرة واسعة تمتد على أحد جانبي الممر، حيث يتوجب عليهم أن ينتظروا ساعات طويلة، بلا طائل بالنسبة إلى كثيرين لا يسمح لهم بالدخول. وفي حرارة الصيف الشديدة وسحب الغبار التي يثيرها تدافع الناس على المعبر، يتحول الانتظار إلى مسألة عطش، وملل، وقلق، وسخط، وغضب.

وتتوقف الصفوف على مسافة نحو عشرين متراً من عنبر أسمنتي مصفح بالفولاذ، ذي باب حديدي من السماكة والثقل بحيث أنه يستجر نخيراً من الجنود كلما دخلوا وخرجوا منه. يسمح للأشخاص بأن يتقدموا واحداً واحداً من نافذة العنبر الصغيرة ليقدموا بطاقات هويتهم ويخضعوا للاستجواب. بعد بضع دقائق قلقة يشار إلى الشخص التالي كي يتقدم. وتكاد تسمع الناس يتنفسون الصعداء ما إن تُردّ إليهم بطاقات هويتهم ويعبر حاملوها إلى الجانب الآخر. ومهما يكن الإرهاق فإن الخطوات تتسارع عادة عندما يجتاز المشاة مسافة ملعب كرة قدم أُخرى إلى سيارة الأجرة التي تقف في الجانب النابلسي. انتهت معاناة حاجز التفتيش، والرحلة سريعة إلى مركز المدينة على بعد بضعة كيلومترات. وقد تستغرق العملية كلها ما بين ساعة إلى ست ساعات بحسب مزاج الجنود وأوامرهم، علاوة على كثافة حركة العبور. ومن أعسر أوجه التجربة هو أنها تستعصي على التوقع؛ فإذا صادف القادمون من رام الله تأخيرات أطول من المعتاد على نقاط التفتيش الثلاث أو الأربع على الطريق، فقد يتأخرون عن الوصول إلى نابلس قبل إغلاق المعبر عند السادسة مساء.

**الجبل والوادي**

الشعور بالاحتلال العسكري المباشر يتلاشى بالتدريج ما إن تختفي المعابر الحصينة عن البصر. لكن عندها يستحوذ عليك شعور آخر: الشعور بأنك مراقَب بصورة مستمرة. أينما ذهبت في المدينة يبدو أن لا مكان فيها للاختباء. فهناك طائرات التجسس الحاضرة أبداً (وهي ما يسميه النابلسيون "الزَنّانه"، محاكاة للصوت الذي

تصدره) والمحلقة جيئة وذهاباً تصوِّر وترسل المعلومات. رسمت الكاتبة بيني جونسون أوائل أيام الانتفاضة صورة للناس في رام الله سنة 1988 يسيرون مطرقين وأبصارهم متجهة إلى الأرض أمام أقدامهم، لا خوفاً وإنما بحثاً عن البيانات التي كانت القيادة السرية للانتفاضة تحدد فيها أهداف الأسبوع المقبل وجدول التحرك فيه.(3) أمّا في هذه الأيام، فإن الناس غالباً ما يسيرون ورؤوسهم مرفوعة إلى فوق نحو السماء: لا عزة وتكبراً، وإنما لأن حضور "الزَنّانه" فوق بقعة محددة غالباً ما ينبئ بهجوم صاروخي.

تقع مدينة نابلس بين جبلين شامخين هما عيبال والطور. وتعلو قمة كل منهما قاعدة عسكرية تحجبها عن الأنظار أحراج من الصنوبر تمنع السكان من رؤية الجنود، لكنها لا هؤلاء الآخرين من مراقبة المدينة. كانت المدينة سابقاً مشهورة بجمال جبالها الرائعة وبنزه يوم الجمعة إلى أحراجها، لكن اليوم لم يبق شيء من ذلك. فالرصاص من العيار الثقيل ينهمر من الجبل على المدينة، التي لم يعد سكانها يغامرون بالابتعاد عن وسطها إلى أطرافها كي لا يتعرضوا لمدى الكاميرات والنواظير العسكرية، بالإضافة إلى بنادق الجنود المتمركزين في قاعدتي الجبل.

الفئة الوحيدة من أهالي نابلس التي تستطيع التحرك بحرية هي طائفة السامريين. فالسامريون، الراسخون في معتقداتهم وممارساتهم الدينية والحريصون على التزوج من طائفتهم، يعتقدون أنهم اليهود الحقيقيون الوحيدون في البلد. وهذه الطائفة القديمة أكثر عروبة ونابلسية في عاداتها ولهجتها ولباسها من أية طائفة أُخرى، ولم يزل كثيرون من أفرادها يقيمون بحي الياسمينة في البلدة القديمة. غير أنهم قد أقاموا على امتداد الأعوام القليلة الماضية حياً سكنياً حصرياً لهم على قمة جبل عيبال قرب القاعدة العسكرية الإسرائيلية، لا يمكن دخوله إلاّ من بوابة خاصة. ففي خطوة تاريخية، ولأول مرة في الذاكرة المدونة، عزلوا أنفسهم مادياً عن جيرانهم المسلمين والمسيحيين. وهم يقودون اليوم سيارات صُفر اللوحات، ويحملون بطاقات هوية إسرائيلية، ويتمتعون بحرية الحركة. ويعمل كثيرون منهم سائقين بالأجرة للفلسطينيين الذين يستطيعون دفع ثمانين أو مئة دولار أجرة الانتقال إلى مدن الضفة الغربية الأُخرى، أو إلى جسر أللنبي، أو حتى إلى داخل إسرائيل نفسها.

إن حجم هذه الطائفة الصغيرة تاريخياً، الذي لا يتجاوز بضع مئات، قد بات يتزايد بالتدريج، كما أن رفاهية أفرادها تحسنت بصورة ملحوظة. وهذا إنما يحدث في الوقت الذي يعاني النابلسيون هبوطاً حاداً في مستويات المعيشة (63٪ من السكان في الأراضي المحتلة باتوا الآن تحت خط الفقر). لا يزال كثيرون من السامريين يواصلون تقليداً قديماً من العمل في إدارة المدينة، ويعمل بعضهم منذ اتفاق أوسلو في مكاتب السلطة الفلسطينية، كوزارة الداخلية. لكن ليس من الواضح هل ستبقى الوظائف الرسمية وبعض هدايا من زجاجات العرق كافية للحفاظ على الصلات القديمة والإحساس بالانتماء إلى المجتمع النابلسي. ولئن استمر هذا التوجه فمن الممكن أن يصبح الجيل التالي من هذه الطائفة، الأكثر أصالة بين الطوائف الأصلية، أشبه بالمستوطنين القادمين من بروكلين ولوس أنجليس وموسكو منهم بزملائهم النابلسيين. وهذا لا يعني أن السامريين جميعهم على رأي واحد، ولا غير مدركين لخطورة الوضع. فبعضهم منخرط في الحركة الوطنية الفلسطينية، كما أن قلة منهم قد تعرضت للسجن على يد الجيش الإسرائيلي.

**العروض الليلية**

في كل ليلة تكون نابلس مسرحاً لعرض ذي فصلين: الأول يوحد المدينة، والثاني يفرقها. فابتداء من الغسق، تجتمع نابلس كساحة اجتماعية واحدة، إذ يحتشد الناس من كل أحيائها والمخيمات حول المركز التجاري الجديد، الأميركي الطراز، وحول الأكشاك والمقاهي المتناثرة في الهواء الطلق في متنزه جمال عبد الناصر، الواقعين كليهما عند أسفل شارع رفيديا. السلالم الكهربائية داخل المركز التجاري الصغير متوقفة عن العمل، والمحال المفتوحة البائسة أقل عدداً من المحال المغلقة بسبب سوء الأحوال. لكنها في مجملها تحيط بمساحة داخلية فسيحة مرصوفة بالرخام، وهي بذلك تخلق مفارقة لم تشهد نابلس مثيلاً لها من قبل. المتنزه مهلهل، مزدحم، ومكسو بكل شيء ما عدا الاخضرار، لكنه يبقى المكان النابلسي الطلق الوحيد للتنزه، والنشاط المفضل للناس الذين كثيراً ما يجدون أنفسهم تحت حظر التجول.

وسرعان ما يتوافد على الجانب الشمالي لشارع رفيديا لفيف كثيف من الشباب – شبان وشابات مخطوبون حديثاً يمشون يداً بيد، وزرافات من طلاب جامعة النجاح يمشون كل ثلاثة في صف واحد، ومراهقون من المخيمات، وأزواج جدد يدفعون عربات الأطفال. خطان متوازيان من السيارات، وكثير منها مكتظ بالركاب ويهتز بالموسيقى الصاخبة، يسيران صعوداً ونزولاً على امتداد السوق التي لا يزيد طولها على ميل واحد، والتي تتراصف

فيها المحال من كل الأنواع: محال السمانة والبقالة والحلويات الفاخرة؛ محال الأزياء الحديثة والصيدليات؛ أكشاك الفلافل ودكاكين الهامبرغر والبوظة الجيدة الإضاءة؛ المخابز وباعة الهواتف الجوالة؛ بضعة مقاهي إنترنت. ولمدة ساعات قليلة ترى مهرجان الحواس هذا – منفس أهالي نابلس للحياة الليلية خارج المنازل – يزيح جانباً ضباب الاحتلال الرمادي ويقدم لمحة خاطفة عما يمكن أن تكون عليه الحياة الاعتيادية.

في وقت لاحق، وفي صمت ليالي الصيف المفزع بعد تبدد الجموع وذهابها إلى مساكنها، يبدأ الفصل الثاني من العرض الليلي؛ إذ تشرع القوات الإسرائيلية في النزول من الجبال تحت جنح الظلام، وتتدفق عبر معبري حوارة وبيت إيبا لتتوغل في هذا الحي أو ذاك من المدينة. الأصوات المتميزة لكل نوع من أنواع الالتقاء بين الأسفلت والمطاط والمعادن الثقيلة تتردد أصداؤها جيئة وذهاباً بين جبلي عيبال وجرزيم. وقد بات الأطفال في كل من نابلس ومخيمات اللاجئين يميزون، في معظمهم، بمجرد سماع الصوت بين سيارة الجيب والهمر، وناقلات الجند المدرعة، والدبابات، ومختلف حجوم الجرافات.

أيام قيام قوات إسرائيلية كبيرة باجتياح الشوارع بأسلحة تطلق النار في كل اتجاه، وبدبابات تطحن كل ما يقع في طريقها، قد ولت منذ زمن. إذ بحلول صيف سنة 2004 انتهت عملية تطويع المدينة عسكرياً: فلا وجود فعلياً لأية مقاومة مسلحة، وتعلم الجميع أن أي تظاهر عام قرب الجنود سيتعرض لإطلاق النار وربما يؤدي إلى الموت الفوري. وقد يردّ أفراد الميليشيا المحاصَرون أحياناً بإطلاق النار، فتندلع عندها نيران الجحيم. تمتلئ السماء بألوان الرصاص الطائر وأصواته، إذ يقابَل كل رشق من بندقية فلسطينية بالزئير الصارخ للرشاشات الثقيلة المحمولة على الآليات المدرعة، والصواريخ، وقذائف الدبابات.

غير أن هذا لم يحدث إلاّ مرة واحدة خلال زيارتي. بدلاً من ذلك، باتت العمليات العسكرية "الجراحية" هي القاعدة. والنمط المعتاد هو أن يصل الجنود الإسرائيليون بلا مقاومة إلى المناطق المستهدفة، بحثاً عن رجال "مطلوبين"، دُوّنت أسماؤهم على وريقات تهدد بعقوبات قاسية (كهدم المنازل) لمن يساعد على إخفائهم. وهم، بعد تطويق المنطقة، يفتحون طريقهم بالقوة إلى أعلى المباني ويضعون القناصة على السطوح أو خلف نوافذ الطبقات العليا. ويجمع سكان كل بناية سكنية تحت تهديد السلاح، ويحشرون في غرفة واحدة في الطبقة الأرضية. المشهد محبط للغاية: رجال في ثياب النوم محرجون في منزل شخص آخر؛ أطفال يبكون، يتململون، أو يتبولون في سراويلهم؛ نساء يحاولن المساعدة لكنهن لا يتوصلن إلاّ بشق النفس إلى عبور الغرفة المكتظة بالناس؛ خطوط من الأشخاص المصطفين لدخول الحمّام الوحيد؛ عيون تشخص إلى الباب الموصد من الخارج بحراسة جنود إسرائيليين؛ بنت صغيرة تبكي بهدوء في ركن من أركان الغرفة؛ رعب عام إذا ما حاول أحدهم النظر عبر النافذة. فقد أطلقت النار على أشخاص لمخالفات أقل شأناً من هذه.

بُعَيد ذلك ينطلق نداء مكتوم من هاتف جوال إلى محطة الإذاعة المحلية التي تنقل النداء عبر الأثير إلى جميع النابلسيين ليسمعوه بأجهزة الراديو الصغيرة الشغالة دائماً في المطابخ: "ساعدونا، رجل مسن مريض بحاجة إلى دواء السكري"؛ "نفد حليب الأطفال"؛ وما شابه ذلك. وترسل هيئات الطوارئ سيارات الإسعاف مع المواد المطلوبة، وترسل على الهواء تقارير عن تقدمها نحو السجن ذي الغرفة الواحدة داخل سلسلة السجون الأُخرى: البناية نفسها، الحي، البلدة القديمة، نابلس نفسها، نابلس الكبرى بين المعبرين، وطبعاً، القطاع الشمالي من الضفة الغربية.

وبينما يستمر الحبس ويصبح الازدحام أمراً لا يطاق، تتحول النداءات من داخل الشقة إلى شيء أشبه بجهاز إرسال واستجابة يحرك المدينة كلها على إيقاع واحد. فإشاراته لا تحرك الجيران والأقارب فحسب (أي أولئك الذين يشكلون العمود الفقري للتضامن الاجتماعي داخل نابلس)، بل تحرك أيضاً منظومة الدعم والمساندة الأوسع نطاقاً والأفضل تنظيماً وفعالية، وهيئات الطوارئ في الضفة الغربية. تعمل فرق الإسعاف والإنقاذ، المؤلفة في معظمها من متطوعين، بالتساند مع أكثر من ثلاثين لجنة محلية في الأحياء، ترتبط بدورها بالمؤسسات البلدية والمحلية في نابلس، فضلاً عن مجموعة من المنظمات الأهلية والخيرية والدينية. وتقدم وسائل الإعلام المحلية تغطية واقعية تحوّل ألوف المستمعين إلى مشاركين في هذه الدراما الليلية. وتقوم "عروض آخر الليل" هذه بمزاحمة المسلسلات التلفزيونية المكسيكية، وبرنامج سوبر ستار الواسع الشعبية الذي يبثه تلفزيون المستقبل اللبناني، والذي يتنافس فيه أفضل هواة الغناء في العالم العربي.

**شهيد وعرس**

في العادة تكون الغارات الليلية محدودة المكان والمدة، وفي أكثر الأحيان يغادر الجنود قبل الفجر خالي

الوفاض. لكنهم، أحياناً، يمكثون مدة أطول تصل إلى بضعة أيام أو أكثر؛ وهذا يعني حظراً متواصلاً للتجول في المنطقة أو المناطق المعنية. الغاية من عمليات كهذه هي دق إسفين مزدوج لتقسيم أهالي نابلس: الإسفين الأول بين "المناضلين" والسكان المدنيين، والثاني بين الأحياء "المشاغبة" والأحياء "الهادئة". وهكذا فإن سكان الأحياء التي يختبئ فيها أفراد الميليشيات المسلحة عادة يخضعون لعقوبات جماعية قاسية بصورة منتظمة على أمل أن يتوصل كثيرون منهم إلى الاختيار بين الحياة العادية وبين مساندة أفراد الميليشيات. أمّا الإسفين بين الأحياء، فمن الصحيح القول إن أياً من هذه الأحياء لم ينج، كما تبين مؤخراً في 14 أيلول/سبتمبر 2003 من قصف الحي الثري في رفيديا، والذي ذهب ضحيته ستة فلسطينيين وعشرات الجرحى. ومع ذلك فإن الغارات في معظمها تستهدف البلدة القديمة ومخيمات اللاجئين حيث يتركز الفقراء والشبان والمهمشون.

إن المستقبل وحده هو الكفيل بالإجابة عما إذا كانت الاستراتيجيا الإسرائيلية ستنجح أم لا. لقد كان هناك دائماً ازدواجية وتناقض في المشاعر لدى كثيرين من السكان وخصوصاً في أوساط الطبقات الميسورة وكبار السن في شأن مجمل ثقافة المقاومة المسلحة، لسببين: أولهما أنهم لا يجدونها فعالة، وثانيهما أن عواقبها على الأعمال والمنازل والسلامة الشخصية باهظة جداً. وقد بلغت هذه الازدواجية أبعاداً تقارب الأزمة منذ اجتياح ربيع سنة 2002، إذ فقدت الميليشيات قدرتها على مهاجمة قوات الاحتلال، لكنها احتفظت بالقدرة على إظهار قوتها على المستوى المحلي، وإن كانت عن طريق استعمال البلطجة. صحيح أن بعض المقاومين ينتمي إلى أبرز العائلات النابلسية، وصحيح أيضاً أن كثيرين من الناس لا يزالون يرون أن الميليشيات ما زالت تمتلك على الأقل القدرة على أن تفعل شيئاً (وهي تقوم بدور فعلي في تسوية المشكلات المحلية)، ولا سيما بعد أن باتت السلطة الفلسطينية غير فعالة سياسياً، إلاّ إن مجرد كون الجنود الإسرائيليين يأتون ويذهبون على هواهم من دون أية مقاومة، بات يدفع الناس شيئاً فشيئاً إلى التفكير في أن الميليشيات أضحت عبئاً أكثر منها عوناً.

ومهما يكن الأمر، فقلما تمر ليلة من دون إطلاق نار إسرائيلي. هنا أيضاً يستطيع الأطفال أن يميزوا الفارق بين مختلف عيارات الرصاص. وهم يستطيعون أن يحزروا من طريقة تلفظ المؤذن بالبسملة إن كان شخص ما قد قتل. "ماما، في شهيد"، هذا ما سمعته من فم طفلة في الرابعة من عمرها، عقب ثوان من اختراق صوت المآذن في المساء وقبل أن يُعْلَن سقوط شهيد.

ليلة وصولي إلى نابلس سمعت هدير المدرعات الإسرائيلية وإطلاق المدافع بعد ساعة. وسرعان ما انتشر الخبر بأن قناصاً إسرائيلياً أردى صبياً في الثالثة عشرة من العمر. توقعت برهة من الصمت المؤلم في الغرفة المزدحمة التي كنت فيها، لكن بدلاً من ذلك سمعت فتاة مراهقة تقول بتذمر ظاهر: "[....]، هذا يعني أن السوق ستغلق غداً." أمّا ابن عمها الأكبر منها بأعوام فأجاب فوراً: "لا خسارة، غداً الجمعة، والسوق مغلقة على كل حال." في البداية ذهلت مما بدا لي أنه تبلّد شديد في الإحساس لديهما. فهما حتى لم يتساءلا عن اسم الصبي. لكن أدركت لاحقاً أن الناس في نابلس – كما هو الوضع في بقية الأراضي المحتلة – يلجأون إلى الانغماس في رتابة الأمور العادية هرباً من دموية الحياة اليومية.

في تلك الليلة صممت على حضور جنازة الصبي، التي كان من المفترض أن تنطلق من المستشفى التخصصي قرب جامعة النجاح إلى المقبرة الغربية عند الساعة الحادية عشرة صباح اليوم التالي. توقعت أن أشاهد الألوف من المشيعين، عندما وصلت الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين، لكنني لم أر مخلوقاً في الشارع. فأيام عروض التضامن الواسعة النطاق مع أهالي الشهداء ولت منذ زمن. ورتابة القتل اليومي على امتداد السنوات الأربع الماضية اختزلت مسيرات التشييع من عشرات الألوف إلى بضع عشرات من أقارب الصبي وأصدقائه، الذين غادروا المستشفى في الوقت المحدد كما يبدو، ولم يعد لهم أثر الآن. سارعت عائداً إلى السيارة لألتحق بهم، وبينما كنت أستدير صادفت موكباً آخر، موكب عرس، في الشارع نفسه. ما كان هذا ليحدث أيام الانتفاضة الأولى، لكن الحياة الآن في نابلس وفلسطين المحتلة جعلت الناس يفقدون الأمل بأن يستعيدوا الحياة السوية في المستقبل القريب. وعلى الرغم من القتل فقد بات عليهم أن يستمروا في حياتهم، وأن يفسحوا في قلوبهم محلاً لشهيد وعرس في الوقت ذاته.

**"من سوف يتذكرهم؟"**

كل من قتله الجنود الإسرائيليون يُطلق عليه اسم "الشهيد"، بصرف النظر عمن هو أو عن ظروف مقتله. لكن الشهداء ليسوا كلهم متساوين. فربما يقتل أحدهم برصاص قناص إسرائيلي في صدره بينما هو يقوم بتصليح

تسرب في خزان الماء على سطح البيت في يوم صيفي هادئ؛ ذلك كان مصير شاب في الثامنة عشرة من عمره قتل من دون إنذار في أواسط حزيران/يونيو. كان فرداً عادياً غير ناشط في الانتفاضة، ولم يكن له أي مطلب في الشهرة. خرج عدد قليل في جنازته، ولم تترك قصته أثراً ذا شأن في الصحف الفلسطينية. هو، على غرار الصبي ذي الثلاثة عشر ربيعاً المذكور أعلاه، لن يتذكره أحد غير أحبائه. إنه في نظر الآخرين مجرد رقم إحصائي. وكلاهما نموذج للمدنيين الفلسطينيين الذين يقتلهم الجنود الإسرائيليون: ذكور شباب ممن يقيمون بالأحياء الفقيرة، أو بمخيمات اللاجئين.

أحياناً يكون أحد الضحايا شخصاً ذا مكانة اجتماعية رفيعة، فيصبح قتله عندئذ رمزياً؛ أي مثالاً يتردد ذكره للدلالة على الطبيعة الاعتباطية والوحشية للعنف الذي يمارسه الجنود الإسرائيليون تجاه السكان المدنيين. وقد حدث مثل ذلك في 11 تشرين الأول/أكتوبر 2002، يوم قامت دورية إسرائيلية بالتوقف عند مدخل "فيلاّ" فخمة ومزقت شادن أبو حجلة بالرصاص أمام أعين زوجها وابنها بينما كانت جالسة تطرز في الرواق. "لا أمان لأحد" هو التفسير الذي استخلصه معظم النابلسيين من قتل سيدة معروفة بأعمالها الإنسانية.[4] ومثل هذا كانت حالة البروفسور خالد صلاح وابنه محمد البالغ من العمر ستة عشر عاماً، اللذين قُتلا عمداً أمام أعين عائلتهما. البروفسور صلاح الحائز شهادة دكتوراه من جامعة كاليفورنيا، ديفيس، والمواطن الأميركي، كان عضواً في لجنة السلام الإسرائيلية – الفلسطينية في جامعة النجاح، حيث أسس دائرة الهندسة الكهربائية. مقالة غدعون ليفي المؤثرة عن الجريمة، في "هآرتس"،[5] لاقت توزيعاً واسع النطاق على الإنترنت ونشّطت كثيرين لمضاعفة جهودهم في نصرة الحقوق الفلسطينية. أمّا في نابلس، وعلى الرغم من صيحة الاستنكار ومشاركة المدينة كلها في الجنازة، فإن ردة الفعل على الحادثة كانت الاستكانة الحزينة، وذلك تحديداً بسبب كون الجريمة غير استثنائية في نظر الناس المحليين.

وليس الوضع كذلك بالنسبة إلى نجوم الانتفاضة الثانية، قادة الميليشيات المسلحة. فمصارعهم تصبح مناسبات للتظاهرات الضخمة والعروض الشعائرية للتضامن والغضب والتصميم. على كل حائط ومبنى في المدينة تقريباً يجد المرء ملصقات عليها صور شباب وفتيان واثقين بأنفسهم، مكتملي الرجولة، أحياناً في مجموعات من أربعة أو خمسة، وفي معظم الأحيان في وقفات تظهر مهاراتهم في استخدام البندقية. كل هؤلاء الشباب أموات. وبتقنية متناهية في الدقة تليق برابع أقوى جيش في العالم، وبمصدِّر بارز للتكنولوجيا العسكرية، أعلن الجيش الإسرائيلي وأجهزة استخباراته السرية موسم صيد مفتوحاً على هؤلاء الشبان الذين اغتيلوا بانتظام مرعب. وهم، في معظم الأحيان، قد مُزّقوا إرباً بالصواريخ، أو بالقنابل التي تفجر عن بعد، بينما هم يتنقلون بسيارات بين مخبأ وآخر.

عشية الرابع عشر من حزيران/يونيو انفجرت سيارة أجرة على مقربة من مدخل مخيم بلاطة، أكبر مخيمات اللاجئين في الضفة الغربية، وقتل فيها على الفور خليل مرشود، وهو شاب في أواسط العشرينيات من عمره، وقائد أحد الفصائل المسلحة في بلاطة. وجهه ودماغه اقتُلعا وتحولت جمجمته إلى نصف قوقعة فارغة. أمّا الضحايا الآخرون فشملوا سائق السيارة، الذي تفحّم جسمه كجسم عامل منجم مكسو بغبار الفحم، باستثناء الشظايا المعدنية الناتئة من صدره، وراكباً في المقعد الخلفي أصيب بجرح بليغ.

في غضون دقائق تقاطرت الجموع خارجة من المخيم وأحاطت بالمعدن الملتوي المتبقي من السيارة الصفراء اللون، التي ارتفع غطاؤها واقفاً كأنه يحيّي القمر الطالع. تكررت الأسئلة نفسها مرة أُخرى: من كان في السيارة؟ كيف قُتلوا؟ هل كان صاروخاً من هيليكوبتر، أم من طائرة بلا طيار؟ هل زُرعت قنبلة في المقعد؟ كيف عرفوا أنه كان في السيارة؟ من ساعد الإسرائيليين في التخطيط لهذه الاغتيالات؟

لن تكون هناك أجوبة مفصلة عن هذه الأسئلة. لا الأمم المتحدة، ولا أية منظمة دولية أُخرى على صلة بالخبراء، أرسلت أحداً منهم للتحقيق في هذا الاغتيال غير القانوني، ولا في غيره مما شابهه. السلطة الفلسطينية ترسل محققين، لكنهم لا يمتلكون التدريب الكافي، ولا المعدات، ولا المكاتب، ولا الأموال ليقوموا بشيء أكثر من جمع المعلومات الأساسية من خلال مقابلة شهود العيان وتصوير المشهد بسرعة. طبعاً، الحكومة الإسرائيلية لا تتعاون في هذه القضايا مع كوادر الأمم المتحدة، ولا مع غيرها من المنظمات القانونية الدولية، ولم يبق في نابلس الشيء الكثير من السلطة الفلسطينية. إذ تكفل الجيش الإسرائيلي بمحو آثارها عن طريق حملة منظمة لتدمير البنية التحتية المادية والمؤسساتية للسلطة الفلسطينية في توغلات ربيع سنة 2003. ويتمثل هذا في المقاطعة المهجورة، وهي مجمع عام ضخم مسلح بالفولاذ بناه البريطانيون مقراً إدارياً لهم في نابلس، واستُعمل من جانب السلطات

الأردنية، والإسرائيلية، ثم الفلسطينية. وعلى غرار مبنى المقاطعة الشهير في رام الله، فقد قُصف تكراراً، وهو يقف الآن تذكاراً لانهيار اتفاق أوسلو. ومع ذلك، فإن عجز السلطة الفلسطينية والآخرين عن فعل أي شيء حيال سياسة الاغتيالات التي تعتمدها إسرائيل، تسبب بكثير من الاغتراب والمرارة في صفوف مؤيدي الميليشيات، الذين باتوا يشعرون بالعزلة والتخلي التام عنهم.

بعد أن حمل الأصدقاء والرفاق الجثث إلى المستشفى قام متطوعون محليون، مجهزون بقفافيز بلاستيكية، بالتدقيق في المكان الذي كانت فيه مقاعد السيارة ولوحة أجهزة القياس. ما كانوا يجمعون البينات، وإنما أشلاء الضحايا إكراماً للقتلى ولعائلاتهم.

حتى قبل التحقق من هويات القتلى، كان معظم الناس يخمن أن المستهدف إنما هو خليل، الذي كان نجا أو كاد من محاولة اغتيال استهدفته قبل أسبوعين وقضى فيها اثنان من رفاقه الأربعة في الخلية. ومع ذلك فإن مشهد مستشفى رفيديا كان مشهد فوضى عارمة، وكأنه لم يحدث من قبل شيء كهذا قط. مئات الشبان الغاضبين – أصدقاء خليل، ورفاقه المناضلون، ومؤيدو الكفاح المسلح من المدينة والمخيم – توافدوا على المستشفى وشقوا طريقهم عنوة عبر المدخل كأنهم يقتحمون منطقة عدوة. وإذ تزايدت كثافة الحشد وتدافعه، راح يتموج كتموج ماء المد في خليج صخري. وبلغ الغضب برجل منهم مبلغاً دفعه إلى ضرب الزجاج السميك في نافذة الباب المتحرك المفضي إلى غرفة الطوارئ. فانقطع وريد رئيسي في ساعده، وحُمل على وجه السرعة إلى غرفة الجراحة الطارئة.

إلاّ إن ما نشاهده هنا ليس فوضى كما يبدو أول وهلة، وإنما هو طقوس مشهدية متكررة خلال الأعوام الأربعة الماضية. يستحوذ على الناس هاجس واحد يسيطر على الجميع: الكل يريد أن ينزل إلى براد الجثث في الطبقات السفلى لرؤيتها. وتندفع الجموع المهرولة منحية كل شيء عن طريقها، وسرعان ما تملأ الأروقة المؤدية إلى الغرفة الواقعة في آخر الدهلين. كثيرون من المندفعين في اتجاه الغرفة الضيقة يجدون أنفسهم عاجزين عن النظر إلى البراد الواقع على مسافة متر فقط، ذلك بأنه يقع على ارتفاع الخصر فتحجب الرؤية المباشرة للجموع المحشورة في هذا الحيز. الرغبة الجامحة في رؤية الجثة لا تصدر عن فضول مرضي، وإنما عن الرغبة في الوجود مع خليل بهدف ضمان الاستمرارية لما كان يمثله، التجسيد المادي لأحلامهم بالحرية والكرامة في فلسطين المستقبل. وقد تمزق بعنف تماماً كما تمزقت أحلامهم. والآن ينبغي لروحه أن تنتقل إلى الآخرين بحيث يستطيع أحدهم أن يأخذ مكانه ويبقي الحلم حياً. فلسطين المتجسدة، والممزقة، والمتجسدة ثانية.

حيطان الرواق مرصوفة بالجثث. وإذ أدرك الحاضرون العلاقة فقد راحوا في معظمهم يجهشون بالبكاء، أو استغرقوا في صمت مصعوق. تعابير الحزن المتحركة الوحيدة تأتي الآن من أمهات الرجال الموتى، وشقيقاتهم، وزوجاتهم. ولا أحد يستطيع أن يلجم حزنهن وغضبهن. أصواتهن هي الأصوات الوحيدة المفهومة. يكررن مراراً: "من سيتذكرهم؟"؛ "إنهم لا يقتلون إلاّ الشرفاء!"؛ "الله يلعن المتعاونين!"

هذه العبارات تعرب عن الثقافة السياسية والنظرة السائدة عند قطاع واسع من المجتمع الفلسطيني. ذوو الضحايا ومن حولهم هم "الشرفاء"، وبقية العالم مكان مملوء بالفساد، والجشع، والمكر، والعنف الأعشى. الشعور العميق بأنهم ضحايا يتضافر مع رغبة أعظم في المقاومة والثأر. بالنسبة إلى عائلة خليل وأصدقائه ورفاقه، مضت أشهر وأعوام من العيش على حافة الهاوية محاولين حمايته من الموت المحتم. وفي النهاية اصطادوه وأُردي وأصبح العالم مكاناً صغيراً جداً. وهم يقفون الآن لوحدهم يراقبون من خنادقهم الذهنية الولايات المتحدة وإسرائيل، وكأن هاتين ليستا كافيتين، فتضاف إليهما الحكومات العربية، والسلطة الفلسطينية، وحتى كثيرون من النابلسيين الذين ما عادوا منذ أعوام موضع ترحيب في المخيمات، تماماً كما أن سكان المخيمات ما عادوا موضع ترحيب في نابلس.

موكب الجنازة في اليوم التالي يهيمن عليه الشباب، شباب يستطيعون أن يتصوروا بسهولة أجسادهم هم محمولة على أكتاف المشيعين. الحشد المفعم بالنشاط ينجز سريعاً المسيرة الطويلة من الطرف الغربي للمدينة إلى ضواحيها الشرقية، وكما تزف العروس في العرس إلى العريس، تسلم الجموع الجثث إلى أهالي المخيم المتجمهرين بالمئات عند المدخل. داخل المخيم تقام الصلوات، والتأبين، ثم الدفن في المقبرة. الصوت الذي يؤدي التأبين مألوف: إنه صوت خليل. فقد وقف هو نفسه في هذا الموضع منذ أسبوعين وودع رفيقيه بخطاب مؤثر. وقد سجل ذلك الرثاء وها هو صوته يجلجل الآن فوق جثمانه ذاته. بعد أسبوعين، تم اغتيال رابع أعضاء الخلية التي كان يتزعمها خليل.

**الكنافة غادرت نابلس**

النابلسيون يفخرون بلقب مدينتهم، "جبل النار"، وهو لقب مستمد من أسطورة محلية تقول إن نابليون عندما اقترب من نابلس هُزم بعد أن أضرم الأهالي النار في الغابات وبساتين الزيتون، وأحرقوا الجنود الفرنسيين. هذه الأسطورة هي شاهد على أحد التقاليد التي اشتهرت بها منطقة نابلس باعتبارها مركزاً لمقاومة السيطرة الخارجية. اللحظة الحاسمة في الذاكرة الشعبية عن الحقبة الحديثة، بالإضافة إلى مواجهة العساكر الفرنسيين خلال مغامرة نابليون البائسة في فلسطين، هي قيام نابلس بتزعم التمرد على عساكر محمد علي باشا المصريين الغازيين سنة 1834، وقيامها بدور القلب النابض في الثورة الكبرى على الإنكليز (1936 – 1939)، وأخيراً دورها المركزي في الانتفاضتين على الاحتلال الإسرائيلي. لكن نابلس، بالنسبة إلى معظم الناس في الخارج، مشهورة بأمرين تقليديين مختلفين: الصابون المصنوع من زيت الزيتون، والكنافة. والسلعتان تحظيان بالإعجاب، لنقاوة الصابون وطيب طعم الكنافة، بحيث أنه يسهل تسويقهما إلى الباعة، من دمشق إلى القاهرة، ومن شيكاغو إلى مدينة الكويت: صابون نابلسي، وكنافة نابلسية، بصرف النظر عمن يصنعهما وأين. كلاهما يشهد على قوة تجار نابلس وحرفييها الذين جعلوا منها عماداً لاقتصاد الضفة الغربية منذ زمن بعيد. وكلاهما يشهد على العلاقة العضوية بين المدينة وريفها، إذ تبدو المدينة والريف جزأين من كلّ لا قيام لأحدهما من دون الآخر.

غير أن نابلس اليوم مدينة مكسورة الجناح. فلأول مرة منذ مئات الأعوام فصلت بالقوة عن ريفها لمدة طويلة من الزمن. ولم يحدث، فيما تعيه الذاكرة، أن قام ذلك العدد من تجارها، وهم تاريخياً الأكثر تعبيراً عن نابلس كمكان قائم بذاته ثقافياً واقتصادياً، بمغادرة مدينتهم المحببة وانتقلوا زرافات مع تجارتهم وصناعتهم إلى رام الله، أو عمّان، أو سواهما. الكنافة، كما يسمع المرء اليوم، غادرت نابلس. وكذلك سوق الضأن، والحسبة، أكبر سوق للخضروات والفاكهة في الضفة الغربية بأسرها، السوق التي تعتاش منها مئات الأسر.

القصة الحقيقية للحصار الإسرائيلي ليست في العنف والاغتيالات فقط، وإن كان ذلك مؤلماً بصورة لا تطاق لذوي كثيرين ممن يرديهم الجنود الإسرائيليون، ولكل الذين يشهدون تدمير التراث الثقافي لمدينة عريقة. بل القصة الحقيقية هي أيضاً في الخنق البطيء والوحشي والمنهجي لتكوين اجتماعي بأسره. والغاية هي جعل العادات الصغيرة للحياة اليومية – كالعمل، والذهاب إلى المدرسة، وزيارة الأصدقاء والأقارب – عسيرة إلى حد التسبب بتغيرات سكانية كبرى من شأنها أن تحطم إرادة المقاومة في نفوس الفلسطينيين، وتجعل استعمار أراضيهم أمراً محتوماً وغير قابل للعكس.

من المؤكد أن الحكومة الإسرائيلية، وربما البعض في السلطة الفلسطينية، والمنظمات الدولية، والمنظمات غير الحكومية، تراقب عن كثب التغيرات الديموغرافية الخارجية والداخلية التي سبّبها الجيش والبيروقراطية الإسرائيليان. لكن الإحصاءات الموثوق بها ليست متاحة للجميع. ومع ذلك، لا شك في أن هذه التغيرات تطاول مباشرة ثلث سكان الضفة الغربية، أو ربما نصفهم. فعشرات الآلاف ممن يقتدرون على تكلفة المغادرة، وتجاوز التقييدات الإجرائية الأردنية على جسر أللنبي، قد غادروا فعلاً. والدافع الأول الذي حرك معظمهم هو الحاجة إلى العيش عيشاً آمناً سوياً، وإرسال أولادهم إلى مدارس جيدة تؤمن لهم مستقبلاً. ومعظمهم ينتمي إلى الطبقتين الوسطى والعليا، وقد أثر ذلك تأثيراً سلبياً قوياً في اقتصاد الضفة الغربية المتداعي أصلاً.

عشرات الألوف غيرهم أقدموا على تشكيلة واسعة من أنماط الهجرة الداخلية، التي ربما كانت عواقبها خطرة بقدر ما هي غير واضحة. من ذلك أنه لا يقدم على تجشم أعباء مجابهة نقاط التفتيش في هذه الأيام إلاّ أولئك الذين في أمس حاجة إلى السفر. أمّا أولئك الذين يعملون موظفين خارج نابلس، مثلاً، فإنهم قد انتقلوا من المدينة، أو استغنوا عن وظائفهم. وأمّا النابلسيون الذين يعملون داخل نابلس – أو أولئك الذين ليس لهم عمل في أي مكان أصلاً نتيجة ارتفاع نسب البطالة – فهم قلّما يغادرون المدينة. فعشرات الألوف من أهالي نابلس ومخيمات اللاجئين فيها، من دون مبالغة، لم يجازفوا بتخطي حدودها الإدارية منذ اندلاع الانتفاضة الثانية في خريف سنة 2000. وكي نتمكن من تقدير معنى هذا الاحتباس تقديراً تاماً، ينبغي لنا أن نتذكر أن قيادة السيارة عبر نابلس من حوارة إلى بيت إيبا لا تستغرق اليوم أكثر من عشر دقائق.

والشعور بالاحتباس يزداد حدة في صفوف أهالي القرى في ريف نابلس، تلك القرى التي بات معظمها منقطعاً تماماً عن العالم. وإلى هؤلاء يجب أن يضاف عشرات الألوف ممن باتت حياتهم مستحيلة بسبب جدار الفصل. أمّا من كانوا منهم مضطرين إلى الذهاب إلى المدارس، أو المستشفيات، أو الأعمال، أو سواها من الخدمات التي لا توجد

عادة إلاّ في التجمعات السكنية الكبرى، فقد باتوا يغادرون قراهم وبلداتهم جماعات جماعات. فالألوف منهم انجذبوا إلى المكان الوحيد الذي سمحت الحكومة الإسرائيلية فيه بما يشبه الحياة الطبيعية: رام الله، "عاصمة" فلسطين بالأمر الواقع. والازدهار العمراني في مدينتي رام الله/البيرة التوأمتين على امتداد الأعوام القليلة الماضية لا يمكن أن يوصف إلاّ بالاستثنائي.

والوضع لا يختلف كثيراً في نابلس. فالاقتصاد قد يكون في وضع مشلول، لكن النشاط العمراني في أوج الغليان. والهجرة الداخلية من السجون الصغيرة إلى السجون الكبيرة، التي تحرك هذا التوسع، ولّدت الشعور لدى الفلسطينيين بأنهم إنما يحشرون داخل محميات معزولة. فالبنايات السكنية ذات الواجهات الحجرية المميزة باتت تشيَّد الواحدة تلو الأُخرى بصورة عشوائية، صعوداً على سفوح جبلي عيبال وجرزيم. والمباني الجديدة الشامخة تتصل فيما بينها بكل شيء، من أسواق مركزية إلى طرق ترابية مشقوقة حديثاً في التلال الكلسية كالجروح. لقد راحت خضرة بساتين الزيتون والفاكهة والخضروات النضرة، التي كانت تحجب المدينة عن الناظر إليها من بعيد، تنحسر على مدى العقود الماضية مع توسع العمران في المدينة. أمّا الآن فيبدو أنها تتلاشى أمام سحب الغبار المتصاعد حول الأعمدة الحجرية الضخمة المتناثرة في مشهد صخري سريالي. وإن المرء ليتساءل عما سيحدث يوم يمتلئ هذا المكان تماماً، ولا يبقى أمام أهله، كأهالي غزة، أي مكان يذهبون إليه.

**تذييل**

تريد ابنتي تالا، وهي في التاسعة من العمر، أن تتأكد من أنني ذكرت أنه حين يبدأ الفصل الثاني من العرض الليلي، يبادر الناس إلى إطفاء الأنوار في منازلهم ليحولوا دون إطلاق الجنود الإسرائيليين النار عليهم، ثم يسترقون النظر من نوافذهم. وكثيراً ما ينام الأطفال ثم يستيقظون على صوت إطلاق الرصاص. أحياناً يجلس البالغون في الخارج ويدخنون السجائر متفرجين على العرض الليلي عن بعد. وربما حدث أن حطت في ديارهم رصاصة أو اثنتان. ومن المهم أن نعلم، كما تقول تالا، أن الناس باتوا يرغبون في تربية الحيوانات الأليفة، ولا سيما الطيور، لتؤنس وحدتهم عندما يحتجزون في منازلهم. ■

(*) يدرّس تاريخ الشرق الأوسط الحديث في جامعة كاليفورنيا، بيركلي. وهو يشكر عنان أتيره على سخائها وثقتها واستبصاراتها، الدكتور سليم تماري على تعديلاته على هذه الترجمة.

(**) *Journal of Palestine Studies,* vol. xxxiv, no. 1 (Autumn 2004), pp. 37-50

(1) أنظر: “Settlements and the Destruction of History,” *Journal of Palestine Studies,* vol. xxxiv, no. 1 (Autumn 2004), pp. 145-147.

(2) أنظر: Amira Hass, “There is Order in the Anarchy,” *Journal of Palestine Studies,* vol. xxxiv, no. 1 (Autumn 2004), pp. 101-102.

(3) Penny Johnson et al., “The West Bank Rises Up,” in Zachary Lockman and Joel Beinin, eds., *Intifada: The Palestinian Uprising Against Israeli Occupation* (Boston: South End Press, 1989), p. 30.

(4) أنظر: http://www.remembershaden.org

(5) Gideon Levy, “Death in a Cemetery,” *Ha’Aretz*, 23 July 2004.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البـريدي التالـي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx